الفصل الثانى

الفصل الثانى

فى الحرية

الحرية: هى المقابل المناقض للعبودية.. والحر: ضد العبد والرقيق.. وتحرير الرقبة: عتقها من الرق والعبودية.. فالحرية هى رخصة الإباحة التى تمكن الإنسان من العقل أو الترك، المعبر عن إرادته، التى هى شوق إلى الفعل أو الترك، فى أى ميدان من ميادين الفعل، وبأى لون من ألوان التعبير الحر...

وفى المصطلح القرآن مقابلة بين الحر والعبد ﴿ **كُتِب علَيكُم الْقِصاص فِى الْقَتْلَى الْحر بِالْحر والْعبد بِالْعبدِ والأُنثَى بِالأُنثَى** ﴾ [1].

ومن المأثورات الإسلامية كلمات الفاروق عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا "؟!.

وكما أن الحر هو الخالى من القيود المادية والقانونية التى تحد من حريته، فهو أيضا المتحرر من سلطان الصفات والعادات الذميمة، لأنها تستعبد صاحبها.. وفى القرآن الكريم ﴿ **رب إِنِّى نَذَرتُ لَك ما فِى بطْنِى محرراً** ﴾ [2].. أى حرا معتقًا من أمر الدنيا والحرص على شهواتها.. وفى الحديث النبوى الشريف: "تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار.. [3] ذلك لأن الحريص عبد لما هو حريص عليها.. وفى ذلك يقول الشاعر:

- ورق ذوى الأطماع رق مخلد*

****

ولما كان الإسلام، جوهر رسالته، هو إحياء للإنسان، يحرر ملكاته وطاقاته من استعباد الطواغيت، فيجعل هذه الملكات والطاقات خالصة لله سبحانه وتعالى ﴿ **يا أَيها الَّذِين آمنُوا استَجِيبوا لِلَّهِ وللرسولِ إِذَا دعاكُم لِما يحيِيكُم** ﴾ [4]. كانت رسالته، فى العقيدة والشريعة، تحريرا للإنسان، وذلك حتى تتحرر فيه هذه الملكات ﴿**الَّذين يتَّبِعون الرسولَ النَّبِى الأُمى الَّذِى يجِدونَه مكْتُوباً عِنْدهم فِى التَّوراةِ والإِنجِيلِ يأْمرهم بِالْمعروفِ وينْهاهم عن**

---

(1) البقرة الآية ١٧٨.

(2) آل عمران الآية : ٣٥

(3) رواه البخارى وابن ماجة .

(4) سورة الأنفال الآية ٢٤.

الْمنكَرِ ويحِلُّ لَهم الطَّيباتِ ويحرم علَيهِم الْخَبائِثَ ويضع عنْهم إِصرهم والأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ علَيهِم﴾ [1].. فجميع أحكام شريعته تحرير، حتى عندما تحرم الخبائث، لأن اجتناب هذه الخبائث تحرير للإنسان من العبودية لها!... ومن ثم فكل الإسلام إحياء بالحرية، يضع عن المؤمنين القيود والأغلال – المادية والقانونية والخلقية – وينمى ويزكى الملكات والطاقات الخيرة، لتغالب وتتغلب على القيود والأغلال فتصبح قمة العبودية لله وحده هى ذروة الحرية والتحرير للإنسان!..

ولأن هذا هو جوهر ومقام الحرية فى رسالة الإسلام، فلقد لحظ المفسرون للقرآن الكريم سر التشريع الذى جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة من رق العبودية ﴿ **ومن قَتَلَ مؤْمِناً خَطَأً فَتَحرِير رقَبةٍ مؤْمِنَةٍ** ﴾ [2]. ذلك لأن الرق موت، والحرية حياة، فلما كان القاتل قد أخرج – بالقتل – نفسا من عداد الأحياء إلى عدد الأموات، فإن كفارة هذا الذنب – المعادلة له – هى تحرير رقبة، بإخراج صاحبها من عداد الأموات – بالرق – إلى عداد الأحياء – بالحرية والتحرير!..

ولما كان "الإسلام دين الجماعة" الذى لا تكتمل إقامته إذا وقف عالم الإيمان به عند حدود الفرد المنعزل، حتى ولو استخلص كل نفسه – بالرهينة – للدين.. بل لابد لإقامة فرائضه وواجباته وشرائعه من أمة ووطن، ومجتمع، ودولة، وعمران، لأن تكاليفه وفرائضه الاجتماعية – الكفائية – موجهة إلى الجماعة، ولا تقوم ولا تقام إلا بالجماعة، بل وحتى فرائضه الفردية أغلبها جماعى الإقامة والأداء.. وأداؤها فى جماعة أزكى وأكثر ثوابا.. لأن هذا هو مكان الجماعة والجماعية فى إقامة دين الإسلام وتحقيق شريعته، لم يقف الإسلام عند تحرير ذات الفرد وطاقاته وملكاته... فلم يعرف الرهبانية التى تقف عند تحرير الذات الفردية، وغنما جعل رهبانية الجهاد الذى يحرر الأمم والشعوب والأوطان، فقال رسوله الكريم ﷺ: "إنى لم أومر بالرهبانية" [3] و"إن الرهبانية لم تكتب علينا" [4] و"عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام" [5] فكانت فتوحات الإسلام حروب تحرير للأمم والشعوب من عبودية الاستبداد الخارجى الذى فرضه على هذه الشعوب، يومئذ استعمار الفرس والروم، ومن الاستعباد الروحى والاجتماعى الذى فرضته على هذه الشعوب نظم الكهانة الدينية، والجور الطبقي، والاستبداد السياسى – فى الكسروية الفارسية والقيصرية البيزنطية.. وعن جوهر هذه الرسالة

---

(1) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(2) سورة النساء الآية ٩٢.

(3) رواه الدارمي.

(4) رواه الإمام أحمد .

(5) رواه الإمام احمد.

التحريرية عبر الصحابى "ربعى بن عامر التميمى"، عندما سأله "رستم " قائد الفرس: "ما الذى جاء بكم"؟!.

.. فقال:

– "إن الله ابتعثنا، وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جود الأديان إلى عدل الإسلام"..

فهى رسالة تحرير.. وتحرير لمن شاء التحرر، بالحرية والاختيار! تحرير من عبادة العباد.. ومن ضيق الدنيا.. ومن جمود كهانة الأديان..

فالحرية والتحرير هى جوهر رسالة الإسلام.. ولأن إقامة الإسلام لا تكتمل إلا فى أمه، كان اختصاص رسوله صلى الله عليه وسلم وشريعته بالجهاد لتحرير الأمم والشعوب، وبالدولة لحراسة الدين المحرر لهذه الأمم والشعوب.

ولأن شعوب الشرق، إبان ظهور الإسلام، قد أدركت هذه الحقيقة من حقائقه، فلقد انخرطت فى موكب فتوحاتها ورعية دولته ولما يدخل الإيمان بعقيدته بعد فى قلوب هذه الشعوب!..

****

وإذا كانت الشرائع السابقة على الإسلام قد تميزت بالمحلية والمرحلية والاختصاص بقوم من الأقوام.. فلقد كانت عالمية الشريعة تحريرا للمؤمنين بها من قيد المحلية وعصبية القومية، وظنت المحلية والأقوام والشعوب القائم كلبنات فى الأمة المنفتحة آفاقها دائما وأبدا لكل من يخلص العبودية للهز. فكانت عالمية الإسلام تحريرا من ضيق أفق العصبية الجاهلية، وكان استيعاب الإسلام لمواريث النبوات والرسالات السابقة، وإنها فقه التى أكتمل بها دين الله الواحد – أى التصديق لما بين يديه، والهيمنة على ما بين يديه – كان ذلك تحريرا من التعصب للشرائع المحلية، وانفتاحها لأبواب الحرية فى شريعته استوعبت الشرائع، وأضافت إليها، ومن ثم أغنت عنها الذين آمنوا بها.. وبعبارة "حاطب بن أبى بلتعة" لـ ٣٥ ق. هـ. – ٣٠هـ./ ٥٨٦ – ٦٥٠م – حامل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى "المقوقس" – عظيم القبط ": إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى الله به فقد ما سواه"!...

****

وكما جاء الإسلام ليضع عن الإنسان إصر القيود التى صنعها الاستبداد، وأغلال العقائد الباطلة والشرائع المحرفة. فلقد جاء ليفتح أبواب حرية الفكر والنظر أمام العقل الإنسانى لينظر ويتدبر ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض، وفى تاريخ الأولين. والآخرين.. فى الماضى والحاضر والمستقبل... فى كيف بدأ الخلق، ولماذا كان الخلق، وإلى أين المسيرة والمصير؟.

. فكان حديث القرآن الكريم عن التعقل والتدبر والتفكر والتذكر والحكمة والاعتبار.. بل واستنفاره هذه المكلات الإنسانية لتعمل بكل ما وهبها الله من طاقات فى النظر لاكتشاف ما أودع الله فى عالم الشهادة من آيات وسنن وأسرار.. فبعد أن كان سبيل الإيمان – فى طور الطفولة الإنسانية – هو إدهاش العقل بالمعجزات المادية، إدهاشاً يشل طاقاته وقدراته على التفكير!.. غداة النظر والتعقل والسبيل للإيمان بالأسس على تبين ما فى المخلوقات من حقائق وقوانين وآيات.... ﴿ **سنُرِيهِم آياتِنَا فِى الآفَاقِ وفِى أَنْفُسِهِم حتَّى يتَبين لَهم أَنَّه الْحقُّ** ﴾ [1]. ولذلك رأينا الحديث المتكرر، فى القرآن الكريم، الذى يستحث الإنسان على تنمية ملكات وطاقات النظر والتفكر، لتزداد مساحة الحرية الإنسانية – بالعلم والمعرفة– إزاء ما فى الكون من قيود تتمثل فى المجهول..

فالحديث عن التعقل يرد فى القرآن – بصريح المصطلح – فى تسع وأربعين موضعا.. وعن القلب – الذى هو أداة الفقه والعقل – فى أكثر من مائة موضع... وعن اللب – الذى هو جوهر العقل – فى ستة عشر موضعا.. وعن النهى – بمعنى العقل – فى موضعين. وعن الفكر والتفكر فى ثمانية عشر موضعا.. وعن الفقه – الذى هو تجاوز علم المشاهد إلى علم الغيب – فى عشرين موضعا.. وعن التدبر – الذى هو النظر فى العواقب والمستقبليات – فى أربعة مواضع... وعن الاعتبار فى سبعة مواضع.. وعن الحكمة – التى هى الصواب والإصابة بواسطة العقل – فى تسعة عشر موضعا.. وانطلاقاً من هذا الرصيد، غير المسبوق فى شريعة من الشرائع السابقة على شريعة الإسلام، رصيد التحرير لملكات التعقل والتدبر والتفكر لدى الإنسان، ليتحرر من خوف المجهول، ويمتلك مفاتيح القوى التى سخرها الله له فى استعمار المجهول، ويمتلك مفاتيح القوى التى سخرها الله له فى استعمار الأرض... انطلاقاً من هذا الرصيد التحريرى قال جمهور من فلاسفة الإسلام: إن أدل واجب على الإنسان المكلف هو "النظر" لأن النظر الحر – هو المحرر لملكات الإنسان – وهو السبيل إلى الإيمان الديني، الذى تبلغ به هذه الملكات قمة التحرر من استعباد الطواغيت!..

---

(1) سورة فصلت الآية ٥٣ .

****

وكما تجاوز الإسلام تحرير طاقات الإنسان إلى تحرير الشعوب من الاستعباد.. فلقد تجاوز تحرير الذين كانوا يعدون "أحرارا" إلى الدعوة لتحرير "الأرقاء"..

لقد ظهر الإسلام ونظام الرق- إن شبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها – نظام عام، وبالغ القسوة، ويمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادى والاجتماعى لعالم ذلك التاريخ..و إذا نظرنا إلى المحيط الذى ظهر فيه الإسلام وجدنا الروافد المتعددة دائمة الإمداد لنهر الرقيق الزاخر بالجديد من الأرقاء.. فالحروب العدوانية.. والغارات الدائمة...والفقر المدقع.. والعجز عن سداد الدين والحرابة وقطع الطريق.. وأسواق النخاسة التى تعج بالصغار المجلوبين – فتيانا وفتيات – كانت من المعالم الأساسية لكل المجتمعات، حتى لا نغالى إذا قلنا إن الرقيق كان "العملة الدولية لاقتصاد ذلك التاريخ!...

فلما جاء الإسلام، وقامت دولته بالمدينة، حرم وألغى كل المنابع والروافد التى تمد نهر الرقيق بالجديد والمزيد.. ووسع مصبات ذلك النهر، عندما حبب إلى الناس عتق الأرقاء وتحريرهم، بل وجعله مصرفاً مصارف الأموال الإسلامية العامة، وصدقات المسلمين... وعندما جعل العديد من كفارات العديد من الذنوب هى تحرير الأرقاء.. وعندما سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكه، فى المطعم والمشرب والملبس، ودعا إلى حسن معاملته، والتخفيف عنه فى العمال، حتى لقد أصبح الاسترقاق – فى ظل هذه التشريعات – عبئاً اقتصاديا يزهد فيه الراغبون فى الثراء، بعد أن كان موردا من موارد الاستغلال!...

فلم يكن موقف الإسلام من "الحرية"، وعداؤه "للعبودية " إذا نظرنا إلى موقفه من نظام الرق – مجرد موقف "فكري.. نظرى... أخلاقى، وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة إصلاحية شاملة غير المجتمع الذى ظهر فيه تغييرا جذريا.. بل إنه لم يقف بالرقيق عند حد العتق والتحرير، وإنما فتح أمامهم كل أبواب الارتقاء فى السلم الاجتماعى، وفق المعايير التى اعتمدها للارتقاء الاجتماعى: التقوى، والبلاء فى إقامة الدين والدولة والمجتمع الجديد... حتى رأينا "بلالا الحبشى" الذى أعتقه أبو بكر الصديق – يقول عنه عمر بن الخطاب – وهو من هو شرفاً وحسبا ونسبا: "سيدنا – (أى أبو بكر) – أعتق سيدنا – (أى بلال) –!!".

ولقد وقف التشريع الإسلامى بالاسترقاق عند أسرى الحرب المشروعة وحدها، وذلك ليبادلهم مع أسرى المسلمين.. بل وشرع لهذه الحالات، المحدودة العدد، "كالمن" و"الفداء" ﴿ **فَإِذا لَقِيتُم الَّذِين كَفَروا فَضرب الرقَابِ حتَّى إِذَا أَثْخَنتُموهم فَشُدوا الْوثَاقَ فَإِما منّاً بعد وإِما فِداء حتَّى تَضع الْحرب أَوزارها** ﴾ [1]..

---

(1) سورة محمد الآية ٤...

ذلك هو إنجاز الإسلام فى واقع التحرير للرقيق.. وهو إنجاز لا تحسب عليه "الـ.ردة" التى حدثت عندما استشرى استرقاق بعد اتساع الدولة، ودخول شعوب كان الرق فيها نظام.ا اقتصاديا واجتماعيا معقدا ومركبا... والدولة الإسلامية ليست على خالها فى ظل منهاج النبوة والراشدين!...

****

ولأن هذا هو مقام الحربة فى الإسلام، فلقد كان مبحثها هو أول المباحث التى بـ.دأت بها الفلسفة الإسلامية فى تاريخنا الحضارى، بعد ظهور الإسلام.. ولقد دلت ملابـ.سات هـ.ذه النشأة على ارتباط "الحرية" بـ. "المسئولية" ارتباطًا عضويا، لأن القضية التى أثـ.ارت الجـ.دل فولدت البحث فى هذه القضية، هى التغيرات التى أحدثتها الدولة الأموية فـ.ى نظـ.ام الحكـ.م الإسلامى، والصراعات التى حدثت بين المسلمين حول هذه التغيرات.. وهل القـ.ائمون بهـ.ا مسئولون عنها؟... يحاسبون عليها؟.. فهم أحرار مختارون؟؟.. أم أنهـ.م غيـ.ر مـ.سئولين؟.. كليا؟.. أو جزئيا؟.. ولا حساب عليهم؟.. لأنهم مسيرون مجبرون؟؟.. فنشأ مبحث الحريـ.ة – الذى عبر عنه أحيانًا بـ. "الكلام فى القدر" – مرتبطًا بالمسئولية.. مسئولية الإنسان..

****

ولقد تميزت نظرة الإسلام إلى "الحرية" عن نظرات كثير مـ.ن الفلـ.سفات والأذـ.ساق الفكرى الأخرى... فالحرية فى النظرة الإسلامية، ضـ.رورة مـ.ن الـ.ضروريات الإذـ.سانية، وفريضة إلهية وتكليف شرعى واجب.. وليست مجرد "حق" من الحقـ.وق الإذـ.سانية، يجـ.وز لصاحبها أن يتنازل عنها إن هو أراد! – فالرضا بالعبودية هو امتهان لمـ.ن كرمـ.ه خـ.القهن واستخلفه فى حمل أمانة استعمار الأرض، ورفع مقامه حتى على الملائكة المقربين!.. وفيـ.ه ظلم للنفس سيحاسب عليه ذلك الذى يرضى لنفسه الرق والاستعباد!.

والحرية فى الإسلام هى ضرورة إنسانية، لمطلق الإنسان، ولـ.يس للإذـ.سان المـ.سلم وحده.. وعمر بن الخطاب عندما استنكر استعباد الناس – "متى استعبدتم الناس وقـ.د ولـ.دتهم أمهاتهم أحرارا"؟! – كان "الناس" الذين يتحث عنهم غير مسلمين..

وإذا كان الدين والتدين هو أغلى وأول ما يميز الإنسان، فإن تقرير الإسـ.لام لحريـ.ة الضمير فى الاعتقاد الدينى لشاهد على تقديس حرية الإنسان فى كل الميادين.. فهو حر حتـ.ى فى أن يكفر، إذا كان الكفر هو خيار واختياره، طالما أنه لا ينشر كفره بين الذـ.اس، فيعتـ.دى على حريتهم فى الاعتقاد الدينى الذى جعلوه مقوما من مقومات الاجتماع الإنسانى ﴿ **لا إِكْراه**

فى الدينِ قَد تَبين الرشْد من الغَى ﴾ [1].. **﴿ قَالَ يا قَومِ أَرأَيتُم إِن كُنتُ علَى بينَةٍ مـن ربـى وآتَانى رحمةً من عِنْده فَعميتْ علَيكُم أَنُلْزِمكُموها وأَنْتُم لَها كَارِهون ﴾** [2].. **﴿ ولَو شَاء ربك لآمن من فِى الأَرضِ كُلُّهم جمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْره النَّاس حتَّى يكُونُوا مؤْمِنين ﴾** [3] لقـد أراد الله للناس الهدى والإيمان.. لكنه جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية، الحرية والتخيير والتمكـين.. فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية فى كل الميادين..

كذلك تميز الإسلام بمذهبه فى "نطاق" الحرية الإنسانية و"آفاقها" و"حدودها"، تبعا لتميز فلسفته فى مكانة الإنسان فى هذا الوجود..

فالإنسان خليفة عن الله سبحانه وتعالى فى عمارة الوجود.. ومن ثم فإن حريته هـى حرية الخليفة، وليست حرية سيد هذا الوجود.. إنه حر، فى حدود إمكاناتـه المخلوقـة لـه – والتى لم يخلقها هو! –.. وهو حر، فى إطار الملابسات والعوامل الموضوعية الخارجية، التى ليست من صنعه، والتى قد يستعصى بعضها على تعديله وتحويره وتغييره!.. هو حـر، فـى إطار أشواقه ورغباته وميوله، التى قد لا تكون دائما وأبدا ثمرات حـرة وخالـصة لحريتـه وإرادته الخالصة، وإنما قد تكون، أحياناً، ثمرات لمحيط لم يصنعه هو، ولموروث ما كان لـه إلا أن يتلقاه!..

ثم أنه "الخليفة والوكيل والنائب الحر" الذى يجب أن تظل حريته فى إطار عقد وعهـد الاستخلاف الإلهى له.. والذى تمثل الشريعة الإلهية مواده وبنوده وأطر حاكميته... فهى عقد وعهد الاستخلاف والتوكيل.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان ظواهر الطبيعية وقواها.. ليتحرر مـن العبودية لها.. فإن قد أقام – أو أراد – إخاء بين قوى الإنسان وقوى الطبيعة، لتمتزج حريتـه بهذا التسخير المتبادل. فهو أخ للطبيعة، بين قواه وقواها تسخير متبادل، هو أشبه مـا يكـون بالارتفاق، كل مرفق مسخر للمرفق الآخر، المر الذى يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق، المسئول.. لا حرية الذى لا يسأل عما يفعل.. الفعال لما يريد [4]..

---

(1) سورة البقرة الآية ٢٥٦ ..

(2) سورة هود الآية ٢٨..

(3) سورة يونس الآية ٩٩

(4) انظر : د. محمد عمارة (الإسلام وفلسفة الحكم) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م (والمعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م..